تأثير الثقافة العربية والإسلامية في أدب باولو كويلو

د. عبد الكريم خضير عليوي السعيدي

جامعة ذي قار ـ كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية

مستخلص :

باولو كويلو أشهر روائي برازيلي حاز شهرة عالمية واسعة ، ونالت أعماله الروائية اهتمام وسائل الإعلام والناس جميعا ، وحازت قضايانا و ثقافتنا العربية والإسلامية حيزا كبيرا من اهتمامات هذا الروائي ـ كما صرح هو بذلك ـ وفي دراستنا هذه نحاول التعرف على الرجل عن قرب ، وعن مدى تأثير هذه الثقافة في أدبه ، ولاسيما في أشهر رواياته وهي رواية (الكيميائي) ، بوصفها أنموذجا عن ذلك التأثير .

Summary

Paulo Coelho-known novelist Brazilian won international fame and wide, and won his novels media attention and all the people, and won our issues and our Arab and Islamic countries a great deal of the concerns of the novelist as Hu made the remarks in this study trying to identify the man closely, and the extent of the impact of this culture in literature, especially in his most famous novels, an account (Alchimie), as a model for this effect.

من هو باولو كويلهو ؟

يعد باولو كويلهو أو كويلو (Paulo coelho) ثاني كاتب برازيلي بعد جورج امادوا يشتهر شهرة عالمية كشهرة اللاعب البرازيلي الأسمر بيليه ، ولا ادري بالضبط في أي وقت شاهدت الكاتب البرازيلي باولو كويلو من على إحدى شاشات القنوات الفضائية العربية وهو يتكلم عن الثقافة العربية والإسلامية مبديا إعجابه الشديد بها ، كما تكلم عن اهتماماته بكرة القدم ، وكيف انه كان احد أعضاء الوفد البرازيلي الذي التقى برئيس الاتحاد الدولي للعبة حينما احتفلت بلاده بشرف تنظيم كأس العالم للعام ٢٠١٨ فشدني هذا المبدع للكتابة عنه ولكني لم أوفق إلا أخيرا .

استطاع الكاتب الاسباني جان ابرياس صاحب كتاب باولو كويلو وهو صحفي اسباني عاش مع الروائي البرازيلي في بيته ليستنطقه عن سيرة حياته أن يكشف لنا بعض الخبايا في حياة المؤلف ومنها أن والده أودعه في مصح عقلي في طفولته لأنه أراد العمل في المسرح وهو في سن السابعة وترك الدراسة في تخصص مرموق . تكرر هروبه من المصح وكل مرة يرجع إليه مكرها وأخيرا هربا لينظم إلى الهيبيين الملحدين ، ثم اعتنق الماركسية ثم مارس السحر الأسود وقد كانت تلك أكثر تجاربه إيلاما وعدائية ثم هرب إلى أمريكا ليغرق في المخدرات ، استمرر هكذا عدة سنين ثم عدل عن المخدرات لينغمس في تجارب روحية متعددة وكان مولعا بالسفر ، فقرر الحج إلى سنتياغو، وهي مزار يقصده الكاثوليك كممارسة دينية ، ثم رجع إلى الإيمان بالمسيحية رافضا تعاليمها ولكنه مقتنعا بفكرة الإله الواحد والسلام الداخلي والارتقاء الروحي ، وفضلا عما تقدم سرد كايلو على الصحفي جان ابرياس فلسفته في الدين والمرأة ودورها في حياته وطقوسه في الكتابة ، والأشياء التي أثرت به .

باولو كويلو أو كويلهو ـ كما يحلو لبعض النقاد العرب كتابة اسمه ـ روائي و قاص برازيلي ولد في ريو دي جانيرو عام ١٩٤٧ ، و قبل أن يشتهر روائيا ، كان قد مارس الإخراج المسرحي ، و التمثيل ، و الصحافة كما عمل كـ مؤلف غنائي ، و صحفي ،وقد كتب كلمات الأغاني للعديد من المغنين البرازيليين أمثال إليس ريجينا ، ريتا لي راؤول سيبكساس ، فيما يزيد عن الستين أغنية، وبسبب ولعه بالعوالم الروحانية والمجتمعات السرية والعوالم الروحانية أراد أن يجول الكون منذ شبابه كـ هيبي ،بحثا عن تلك المجتمعات السرية وديانات الشرق ،الأمر الذي انعكس على رواياته التي تحكي قصص الأساطير والمجتمعات السرية .

في بداياته الأدبية نشر العديد من الروايات والكتب التي لم تلق رواجا ففي عام ١٩٨٢نشر رواية بعنوان " أرشيف الجحيم " ، وهي رواية لم تلاق أي نجاح ، و تبعت مصيرها أعمال أخرى ، ثم في عام ١٩٨٦ قام كويلو بالحج سيرا للقديس جايمس في كومبوستيلا ،وهو مقام روحاني للعديد من القديسين ،ثم انه قام بتوثيق تلك الرحلة بعد عام واحد ،أي عندما بلغ عمره الأربعين عاما في رواية الشهيرة حاج كومبوستيلا ، ومنذ تلك اللحظة بدأت شهرته تسطع ، و في العام التالي لذلك الحدث نشر كويلو الخيميائي أو الكيميائي ، و قد كاد الناشر أن يتخلي عنها في البداية ، و لكنها سرعان ما أصبحت أهم الروايات البرازيلية و أكثرها مبيعا ، وقد كانت بمثابة القنبلة التي فجرت اسم هذا الكاتب ورفعته إلى مرتبة عالية بين الروائيين العالميين، وما هي إلا فترة بسيطة حتى ترجمت الرواية إلى ثمان وخمسين لغة، ونشرت في مائة وخمسين دولة، وحصلت على المرتبة الأولى في تسع وعشرين دولة ، ولعل أجمل ما قيل في هذه الرواية أنها مثل جمهورية أفلاطون يستطيع قارئها التعرف من خلالها على كتاب آخرين ، ذلك لأن الكتاب أو الروائيين اللاتينيين، مثل الكولومبي الحائز على نوبل غابرييل غارسيا ماركيز، ولويس باندیرو، وآرتورو بيريز ريفيرتي، والأرجنتيني خورخيه لويس بوراخيس ,وغيرهم بينهم صلة قرابة فنية والقارئ سيجد متعة في قراءتهم كلهم دفعة واحدة في رواية واحدة لباولو كويلهو.الأمر ـ كما يقول احد الصحفيين ـ أشبه بقراءة كتاب الجمهورية لأفلاطون عوضاً عن إضاعة سنوات في دراسة أي شيء آخر في الفلسفة (١).

لقد خدم الحظ كويلهو خدمة عظيمة ، فإذا قارناه بغيره من الروائيين والكتاب نجده صار ظاهرة أدبية غريبة وفريدة من نوعها في فترة قصيرة منذ ظهوره الأول على الساحة الأدبية العالمية مقارنة مع غيره من الكتاب ، وقد لاقت رواياته إقبالا كبيرا جدا ، حتى صار كويلو واحدا من القلة النادرة من الكتاب الذين حولتهم الكتابة من أناس عاديين وفقراء معدمين إلى أناس مشهورين فاحشي الثراء، فخلال عقد من الزمن تحول باولو كويلو من متسكع إلى مليونير يتربع على إمبراطورية مالية لا حدود لها، وهو يسافر كثيراً ليوقع كتبه المترجمة للناس العاديين الذين يقفون في طوابير طويلة للحصول عليها والظفر بلقاء قصير مع المؤلف أو مجرد إلقاء التحية عليه. تأتيه الرسل البريدية والإلكترونية من أبعد نقطة من القارات الخمس في الكرة الأرضية تستقبله المؤسسات الثقافية في العالم بحفاوة وهي تطلب إليه إلقاء محاضرات لجمهور القراء الذين يتكدسون لسماعه، هو واحد من قلة نادرة من الكتاب ممن تحولوا بالكتابة وحدها، من الفقر إلى الثراء الفاحش ، ولكن بعض نقاد الأدب والوسط الأدبي الجاد بالتحديد لا ينظرون إلى تجربة كويلهو الكتابية بعين الرضا. كثيرون يعتبرونه كاتباً تبسيطياً فجاً تشكو كتابته من الضحالة

والنزعة التبشيرية ، بل أن بعض الكتاب يتهمه بارتكاب الأخطاء اللغوية التي تكشف عن ضعف قدراته في الكتابة. فالكتابة، والحال هذه، ليست فناً بل مجرد وسيلة للترويج لأفكار ساذجة تدغدغ المشاعر البسيطة لناس عاديين يجدون في الحكايات التي يؤلفها الكاتب سبيلاً للعزاء، ولكن كويلو يدير ظهره للنقاد ، هو يرى أن البساطة التي تطغى في مؤلفاته تمثل الطريق القصير إلى الفن ، فالبساطة برأيه هي قمة الجمال ، وهو لا يريد أن يطارد البلاغة والزخرفة والتعقيد بل أن يكتب كما لو كان الذين سيقرأونه أطفالاً أقبلوا على الحياة لتوِّهم، وعلى نحو عام فان كويلو يمثل ظاهرة فذة ، إذ كيف يمكن تفسير الشغف الهائل الذي يستقبل به القراء روايات كويلو؟ البساطة وحدها لا تكفي تفسيراً. هناك المئات ممن يكتبون روايات بسيطة فلا يلتفت إليهم أحد، وعلى نحو عام يتميز كويلهو ببساطة السّرد وسلاسته وعفويته وعرض القضايا والأفكار والتغلغل إلى دواخل الإنسان.

تطرّق كايلو في رواياته للمشكلات التي تعاني منها الإنسانية بشتى بقاع الأرض ، وعلى سبيل المثال تحدث عن ما عانته بلادُ الصرب من حروب على أثر انهيار الحكم الشيوعي وانقسام يوغوسلافيا، وما تركته هذه الحروب من أثر على الناس العاديين. ويتناول قضايا فكريّة وحتى دينيّة بذكاء وقُدرة مثل قضيّة وقوع آدم وحواء في خطيئة أكل التفاحة وطردهما من الجنة ، وقضية وضع القوانين التي تُكبّل واضعيها ومن كثرتها تؤدي إلى الخروج عليها ومخالفتها، ثم يتغلغل في نفسية الإنسان ويكشف من خلال شخصيات الرواية ما يُمكن أن يُواجهه الإنسان في حياته من مشاكل تنحرف به عن طريقه الموضوعة له، وأنّ في كلّ واحد تختبئ شخصيات أخرى مختلفة لا يعرفُ منها الناسُ غيرَ التي يَرونها بأعينهم، وأن حقيقةَ الأنا عند كلّ إنسان تكمنُ في ما يعرفه هو عن نفسه وليس فيما يُريده الناس منه وما يتصورونه عليه، وان حبّ الإنسان للحياة وتعلقه بها هو الأقوى مهما كانت الحياة قاسية بمصائبها ومهما تألّم وشكا ورغب في مفارقتها، وأن الحب هو القوّة العظمى التي لا تُقهر ، فإذا أحبّ الواحد ملك حريّته وملك الدنيا وأحسّ أنّه يقهرُ كلّ ما يمكن أنْ يتعرّضَ له ، وأنّه بالحبّ يقهرُ الزمنَ وحتى الموت، وأخيرا فان كويلو يؤمن بأهمية الأدب ، ولاسيما القصص والروايات وهو يرى فيها أحدى الطرق التقليدية التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة حيله ، ومن هنا فهو يقول انك إذا أردت أن تعرف روح شعب ما فاقرأ رواياته وقصصه ، أو اقرأ أدبه عموما (٢).

<u>إعجابه بالثقافة العربية والإسلامية :</u>

عُرف عن كويلهو إعجابه الكبير بالثقافة الشرقية. ولم يُخف أبدا حبه وتعلقه بثقافة العرب على الرغم من أنها أصبحت في الوقت الحاضر لدى بعض المتحفظين تجاه الثقافة العربية بمثابة التهمة ، ولغرض الوقوف على حيثيات الموضوع أود الاستشهاد بما كتبه المؤلف عن ذلك في مقدمته للطبعات العربية لرواية الكيميائي التي نشرتها شركة المطبوعات للتوزيع والنشر في لبنان ، إذ يقول :

((كان أحد كبار متصوّفي الإسلام، وسوف ندعوه هنا حسن، يُحتضَر، عندما سأله تلميذ من تلاميذه :

ـ من كان معلّمك أيها المعلّم؟

أجاب: بل قل المئات من المعلمين. وإذا كان لي أن أسمّيهم جميعاً، فسوف يستغرق ذلك شهوراً عديدة، وربما سنوات. وسوف ينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم .

ـ ولكن، ألم يكن لبعضهم تأثير عليك أكبر من تأثير الآخرين؟

استغرق حسن في التفكير دقيقة كاملة، ثم قال :

كان هناك ثلاثة في الواقع، تعلّمت منهم أموراً على جانب كبير من الأهمية :

أولهم كان لصاً، فقد حدث يوماً أنني تُهت في الصحراء، ولم أتمكّن من الوصول إلى البيت إلا في ساعة متأخرة جداً من الليل، وكنت قد أودعت جاري مفتاح البيت، ولم أملك الشجاعة لإيقاظه في تلك الساعة، وفي النهاية، صادفت رجلاً طلبت منه المساعدة، ففتح لي قفل الباب في لمح البصر .

أثار الأمر إعجابي الشديد، ورجوته أن يعلّمني كيف فعل ذلك. فأخبرني بأنه يعتاش من سرقة الناس .لكنني كنت شديد الامتنان له، فدعوته إلى المبيت في منزلي .

مكث عندي شهراً واحداً. كان يخرج كل ليلة، وهو يقول: سأذهب إلى العمل. أما أنت، فداوم على التأمّل، وأكثرْ من الصلاة. وكنت دائماً أسأله عندما يعود، ما إذا كان قد غنم شيئاً. وكان جوابه يتّخذ، على الدوام، منوالاً واحداً لا يتغير: 'لم أوفّق في اغتنام شيء هذا المساء. لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد. كان رجلاً سعيداً لم أره يوماً يستسلم لليأس جرّاء عودته صفر اليدين، من بعدها، وخلال القسم الأكبر من حياتي، عندما كنت أستغرق في التأمل يوماً بعد يوم، من دون أن يحدث أي شيء، ومن دون أن أحقّق اتّصالي بالله، كنت أستعيد كلمات ذلك اللص: لم أوفّق بشيء هذا المساء، لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد. كان ذلك يمنحني القوة على المتابعة .

ـ ومن كان المعلّم الثاني؟

ـ كان كلباً. فقد حدث أن كنت متوجّهاً إلى النهر لأشرب قليلاً من الماء، عندما ظهر هذا الكلب. كان عطشاً أيضاً ، لكنه، عندما اقترب من حافة النهر، شاهد كلباً آخر فيه، ولم يكن هذا غير انعكاس لصورته في الماء .
دبّ الفزع في الكلب، فتراجع إلى الوراء وراح ينبح. بذل ما بوسعه ليُبعد الكلب الآخر، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل بالطبع. وفي النهاية، قرّر الكلب، وقد غلبه الظمأ الشديد، أن يواجه الوضع، فألقى بنفسه في النهر. وكان أن اختفت الصورة هذه المرة .
توقّف حسن قليلاً، ثم تابع :
ـ أخيراً، كان معلّمي الثالث ولداً، فقد حدث أن رأيته يسير باتجاه الجامع، حاملاً شمعة بيده، فبادرته بالسؤال: هل أضأت هذه الشمعة بنفسك؟ فردّ علي الصبي بالإيجاب، ولما كان يقلقني أن يلعب الأولاد بالنار، تابعت بإلحاح: اسمعْ يا صبيّ :في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مطفأة. أتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تشعلها؟
ضحك الصبي، وأطفأ الشمعة، ثم ردّ يسألني: وأنت يا سيدي،أتستطيع أن تخبرني إلى أين ذهبت النار التي كانت مشتعلة هنا؟
أدركت حينها كم كنت غبيًّا. من ذا الذي يُشعل نار الحكمة؟ وإلى أين تذهب؟ أدركت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه النار المقدّسة للحظات معينة، ولكنه لا يعرف إطلاقاً أين أُشعلت، وبدأت، منذ ذلك الحين، أسرّ بمشاعري وأفكاري لكلّ ما يحيط بي: للسُحب والأشجار والأنهار والغابات، للرجال والنساء. كان لي، طوال حياتي، الآلاف من المعلمين، وبتّ أثق بأن النار سوف تتوهّج عندما أحتاج إليها. كنت تلميذ الحياة، وما زلت تلميذها. لقد استقيت المعرفة وتعلمت من أشياء أكثر بساطة، من أشياء غير متوقّعة، مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم .
تبيّن لنا هذه القصة الجميلة المقتبسة من موروث التصوّف في الإسلام، أن أحد أقدم الطرق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات، وفي ما يتعلق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تبيّن لي أموراً لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه أن يفقه معناها.))(٣) .
وفي مقابلة صحفية نشرتها اغلب المواقع الالكترونية المهتمة يقول:
لقد أصبحت مبهورا بالوطن العربي وكانت البداية بمدينة طنجة في المغرب، ثم اطّلعت على قصص "ألف ليلة وليلة" التي أعدها الأصل في الكتابة الروائية في العالم، واكتشفت التصوّف الإسلامي.. وقرأت الكثير من النصوص، لن أحسّ بالنقص إذا ما قلت بأني متأثر جدا بثقافة الشرق وآدابه. وإني لا أبالغ إذا قلت بأن الإنسان الذي لا يقدر على أن يحب الشرق يعني أنه بلا قلب. اكتشافي الأول للحضارة العربية الإسلامية كان من خلال العرب المقيمين في البرازيل، ثم طورت معرفتي من خلال قراءة الأدب العربي مثل كتاب ألف ليلة وليلة إضافة للأدب الصوفي مثل كتابات جلال الدين الرومي إلى جانب اطلاعي على النصوص الدينية، ولمّا مارست الكتابة وجدت أن ثقافتكم في أعماق قلبي وتظهر طبعا في تلافيفها، لقد أحببت الشرق بعمق، وعن ثقافة الشرق قال : إن ثقافة الشرق هي نفسها ثقافة الحب والشوق فاليوم أنت تقف على أطلال قرطاج، إنّك لا تقول بأنها انتهت، لأنها في القلوب وتاريخها يسري في الذهنية والوجدان الإنساني. الشرق هو الشرق لا ينتهي ثقافيا لحدوث المتغيرات التي كثيرا ما كان الغرب هو المتسبب فيها.. وهو الذي يصنع الآن الصورة التي يريدها عن الإسلام وعن العرب ، ومن جهة أخرى فان كويلو ينفي أن يكون هناك ما يعرف الآن "بشرق الرعب" متهما الصحافة الغربية بإلصاق مثل هذه التهم بالشرق عموما وترويجها عبر وسائل الإعلام ونشرها في العالم أجمع(٤).
وخلال زيارته لمعرض الكتاب الدولي أقيم في تونس في آيار / ٢٠٠٦، قال كويلو مخاطبا الصحفيين المتجمهرين أمامه : الشرق هو الشرق ولن ينتهي ثقافيا لحدوث متغيرات كثيرا ما كان الغرب هو المتسبب فيها. وهو من يصنع الآن الصورة التي يريدها عن الإسلام وعن العرب وثقافتهم وحضارتهم، لكن اعتبر رغم ذلك أن التغييرات الحاصلة في العالم اليوم وفي الشرق بالخصوص لا يمكن أن تحجب نور الثقافة العربية ، وفضلا عما تقدم فانه كان دائما ما يردد انه تأثر بالثقافة العربية والإسلامية وانه استلهم منها الكثير ، كما أنها أسهمت في ثراء مؤلفاته ، ومما قاله في هذا الخصوص : اكتشافي الأول للحضارة العربية الإسلامية كان من خلال العرب المقيمين في البرازيل، ثم قمت بتطوير معرفتي الإسلامية من خلال قراءة الأدب العربي مثل كتاب ألف ليلة وليلة إضافة للأدب الصوفي ،ويتكلم كويلو عن نفسه فيقول : اعتقد أن ثمة شيئا من الشرق فينا جميعا، فهذا هو الاتجاه الذي تشرق منه الشمس، شمس الفهم. الشرقيون الذين قابلتهم هم الأصدقاء البرازيليون الذين ينتمون إلى أصول عربية وإسلامية، وتعدادهم يصل إلى حوالي عشرة ملايين معظمهم من أصول سورية ولبنانية ، ويقول الروائي البرازيلي عندما سئل عن حضور الثقافة العربية والإسلامية في رواية الكيميائي :ليس في الكيميائي فقط، فأنا أحمل وأكنّ إعجابًا عميقا بالثقافة العربية، وأكتب الآن زاوية أسبوعية في جرائد ومداخل ومجلات متعددة في العالم، أحاول أن أتقاسم فيها مع مختلف

القرّاء قصصًا من ثقافات مختلفة، ولا يصعب عليك أن تجد في هذه الزاوية قصصًا من الثقافة العربية، خصوصًا وأنكم رُواة وحكواتيون مُدهشون ورائعون، إذ أنكم غالبًا ما تشاركون وتقتسمون قيمكم ورؤاكم عبر نتاجكم الأدبي والشعريّ، وصحيح جدا أنني كطفل، ترك ألف ليلة وليلة عليّ تأثيرًا قويًا جدًا، وفي فترة لاحقة من حياتي، أثرّ فيّ أدب جبران خليل جبران تأثيرًا كبيرًا وقويًا، لدرجة أنني قمت بإعداد تعديل لأحد كتبه" رسائل حب من نبي"، وإلى يومنا هذا ما زلت أعتبر كتاب "النبي" كأحد الكتب الحاسمة في حياتي وعملي .

ومن جانب آخر يعد كويلو من ابرز معارضي الحرب على العراق، حتى أنه كتب رسالة إلى الرئيس الأمريكي جورج بوش للاحتجاج على احتلال العراق تحت عنوان " شكرا سيد بوش"، كما أشار كويلو إلى أنه بعد أحداث ١١ سبتمبر فقدت السيطرة على الأحداث وبعد غزو العراق عمت الفوضى، ولا فائدة من الكتابة عن الحرب لان قادة الحرب لا يسمعون أصوات دعاة السلام غالبا ، ولعل من الطريف أن اذكر هنا مشاركته الشعب المصري ثورته البيضاء ،فقد كتب الكاتب البرازيلي على صفحته الخاصة في موقعي الفيس بوك والتوتير الشهيرين رسائل تضامنية مع الشعب المصري قائلا:((لا تنسحبوا. عانوا الآن وعيشوا بقية حياتكم كأبطال))، والسطر السابق مقتبس من رواية كويلو الشهيرة الكيميائي التي تدور أحداثها في مصر وصدرت عام ١٩٨٨، وقد أسف كويلو لعدم تمكن المصريين من قراءة ما يكتبه لهم لأن حكومتهم حجبت خدمة الانترنيت في بداية الثورة عنهم (٥) ، ومن جهة أخرى ربما يؤخذ على باولو كويلو ترويجه للديانة المسيحية ، وقصره التجلي والكشف على متبعي تلك الديانة ، في حين كان يجب عليه الخروج من خصوصية تلك التجارب إلى انفتاح اكبر نحو تجارب العالم ،وحيادية تؤكد على مصداقيته ونهجه الروحي .

أهم أعماله :

حاج كومبوستيلا ، والكيميائي اوالخيميائي كما يحلو للمترجمين تسميتها وهي ثاني عمل له وأكثرها انتشارا ، بريدا ، على نهر بيدرا جلست وبكيت ، الجبل الخامس ، الشيطان والآنسة بريم ، إحدى عشر دقيقة ، الزهير ، كالنهر الجاري ، ساحرة بورتوبيلو ، فيرونيكا تقرر الانتحار أو تقرر أن تموت ـ حسب اختلاف الترجمات ـ ، وغيرها ..

رواية الكيميائي

شهرة الرواية :

في البدء علينا التنبيه إلى الاختلاف الحاصل بين المترجمين والنقاد حول اسم هذه الرواية ، فهناك من يطلق عليها اسم الكيميائي وهناك من يطلق تسمية الخيميائي ، ولعل الصحيح في هذا الإشكال هو إن اسم الرواية الكيميائي ولكن يحلو لبعض الكتاب أن ينطق المفردة كما هي أو كما جاءت على غلاف الكتاب ((Alchimie)) ، وقد رسخ في الوجدان العربي ان معنى كلمة كيمياء تعني فيما تعني فن تحويل المادة، أو فن تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب ،وهو المقصود في الرواية ،والكاتب في أكثر من مناسبة تشير إلى استلهامه كثيرا من التراث العربي نتيجة احتكاكه بالجالية العربية في البرازيل ،فضلا عن إعجابه بها ، وربما تشير كلمة الخيمياء إلى اللفظ القديم للتميز عن الكيمياء الحديثة ، وعلى نحو عام فان الكيمياء أو الخيمياء القديمة كانت تهدف إلى تحويل المعادن ذهبا .

أربع وثلاثون مليون نسخة مجموع ما بيع من روايات باولو كويلهو حتى الآن ، مائة وخمسون دولة بيعت هذه النسخ فيها مترجمةً إلى أكثر من إحدى وخمسين لغة (ومنها الترجمة التي بين أيدينا جواد صيداوي وروحي طعمة، ونشر شركة المطبوعات للتوزيع والنشر) ، وكان لروايته الشهيرة "الكيميائي" ، الفضل في تربع كتب باولو على قائمة أفضل الكتب مبيعاً لأشهر طويلة في العديد من الدول ، وجعلته يحصد أكثر من أربعة عشر جائزة كبرى ، وينال تكريم العديد من الدول ، منها إيران التي وجهت له دعوة كأول كاتب غير مسلم ينالها ، ومن ثم أصبح أحد أكثر الكتاب المعاصرين انتشارا ، كما حصلت كتبه على المراتب الأولى في العديد من المسابقات الدولية ، ليصبح اسمه ظاهرةً مميزة في عالم النشر، وعالم السينما بعد أن وصلت هذه الرواية إلى الشاشة الكبيرة .

المتن الحكائي للرواية :

تدور الرواية حول فتى أندلسي" سانتياغو" تعلم في المدرسة وأحب له والده أن يعمل كاهنا، ولكنه اختار أن يرعى الغنم اعتقادا منه أن ذلك يجعله يسافر ويتحرك في الأرض ويتعلم أكثر ويعرف أناسا وأصدقاء جددا، وكان يقضي وقته أثناء الرعي في قراءة الكتب، كان يلجأ إلى كنيسة مهجورة نبتت فيها شجرة جميز فيترك الغنم ترعى هناك أو يؤويها إلى مبنى الكنيسة ويجلس تحت شجرة الجميز يقرأ أو ينام أو يتأمل ويناجي نفسه والكون، ويذهب أحيانا إلى مدينة طريف ليبيع بعض أغنامه أو أصوافها، وفي المدينة تعرف على ابنة التاجر الذي كان يبيعه الصوف ـ فاطمة ـ وتحدثا سويا، وشعر برغبة كبيرة في البقاء في المدينة ليظل قريبا من الفتاة.

يرى الفتى في المنام حلما تكرر مرتين جعله يهتم بتفسيره، فقد رأى نفسه مع نعاجه حين جاء إليه طفل وأمسك بيده وأخذه إلى أهرامات مصر وأراه مكانا محددا في الأهرام، وقال له ستجد هناك كنزا، فذهب إلى عجوز غجرية في المدينة وحدثها عن حلمه لتفسره، قالت له العجوز إن الأحلام هي لغة الرب فإذا كانت بلغة الناس استطعت تفسيرها ولكن إذا كانت بلغة روحك فلا أحد سواك يستطيع تفسيره، وقالت له إن حلمك يصعب تفسيره، يجب أن تذهب كما طلب منك الطفل ولن آخذ منك الآن مقابل تفسير الحلم ولكن إذا وجدت الكنز أريد أن تدفع لي عشره، وطلبت منه أن يقسم على ذلك.

وفي المدينة يلتقي سانتياغو برجل عربي عجوز قال له إن اسمه ملكي صادق، ووجد أن هذا الرجل يعرف حلمه ويعرف كثيرا من أسراره وخصوصياته التي لا يعرفها أحد سواه، وطلب منه أن يعطيه عشر قطيعه من الأغنام مقابل أن يعلمه كيف يبلغ مكان الكنز المخبوء، ويبيع الفتى سانتياغو خرافه ويعطي الشيخ ما طلبه، ولكنه لم يقدم له مقابل ذلك سوى نصيحة عامة "يجب أن تقرأ الإشارات التي تساعدك على معرفة طريقك" وانتزع من صدرية ذهبية معلقة في رقبته حجرين كريمين يدعى أحدهما أوريم والآخر توميم وقال له يمكن أن تسألهما إذا احتجت وحاول أن تتخذ قراراتك بنفسك، لقد أعطيتني ستة خراف لأني أخبرتك عن أشياء تعرفها ولكني ساعدتك على اتخاذ قرار. فيحثه الملك على مطاردة الحلم قائلا له في عبارة فلسفية تلخص فكرة الرواية : ((إذا رغبت في شيء فان العالم كله يطاوعك لتحقق ما تحلم به وكل ما تحتاجه لذلك هو الانتباه للإشارات الغيبية التي تمر بك والاستماع لقلبك فقط..)) .

ثم تأخذ الأحداث بالتسارع عندما يجتاز البطل مضيق جبل طارق، مارّاً بالمغرب، ليبلغ مصر وأهراماتها العظيمة. وكانت تُواجّهه طوال الرحلة إشارات غيبية كثيرة وأحداثٌ كثيرة ، كلُّ حدثٍ منها استحال عقبةً تكاد تمنعه من متابعة طريقه، منها تعرضه للسلب مرتين واضطراره للعمل في متجرٍ للبلّور، ومرافقته رجلاً إنكليزياً، يبحث عن أسطورته الشخصيّة، ويشهدُ حروباً تدور رحاها بين القبائل ، كما يحصل معه العديد من الأمور الغيبية التي كانت تنبئه بضرورة عودته إلى دياره ولكنه أصر على الرحلة متحملاً كل الصعاب ، فعندما وصل طنجة تعرض هناك للسرقة وصار في المدينة غريبا لا يملك شيئا، وعرض على صاحب محل لبيع أدوات زجاجية أن ينظف له متجره مقابل طعامه فقال له التاجر: لن تحتاج لذلك حتى تأكل فيجب علينا أن نطعم الغريب والجائع دون مقابل، ولكنه يوافق على تشغيله في المحل مقابل عمولة، ويعمل الفتى ويكسب في عام واحد ما يكفي لشراء قطيع من الغنم يفوق قطيعه الأول بمقدار الضعف، ويفكر في العودة إلى الأندلس ليفتح دكانا في طريف ويتزوج ابنة التاجر التي أحبها، ولكنه يلتقي رجلا انجليزيا سافر منذ عشر سنوات ليتعلم الكيمياء ويريد أن يسافر إلى مصر ليقابل كيميائيا عربيا يقيم في واحة الفيوم استطاع أن يحضر إكسير الحياة الذي يطيل العمر ويحمي من المرض وأن يكتشف حجر الفلاسفة الذي يحول المعادن إلى ذهب، وأقنع سانتياغو بمرافقته إلى مصر لعله يجد كنزه، واشتريا جملين لينضما إلى قافلة كبيرة متجهة إلى مصر. تعبر القافلة الصحراء ويتعلم سانتياغو أشياء كثيرة، ويتعرف في الليالي عندما يستريح الرجال ويتحلقون حول النار على أشخاص حكماء وشجعان، وتتوطد علاقته بالإنجليزي وإن لم يحب كتبه التي كان يطيل تأملها، وتتحدث عن الزئبق والأملاح.

مكث سانتياغو في واحة الفيوم فترة طويلة بسبب حروب طاحنة تدور في المنطقة بين القبائل جعلت طريق القوافل خطرة ومستحيلة، ولأنه يتقن اللغة العربية فقد استعان به الإنجليزي للبحث عن الكيميائي المقيم في الواحة وفي أثناء البحث تعرف على فتاة اسمها فاطمة وأحبها وقرر أن يبقى في الواحة ليعيش معها. يدرك حينها أن الحب هو قلب الوجود والخلق، ولا يصل إلى هذه الحقيقة إلا من كان الله في قلبه ويسعى بنوره شعر أنه خص هذا الحب الذي يكنّه لامرأة بتقدير كبير: ((عندما نحب تكتسب الأشياء معاني أكثر غنى ،و حيثما قلبك ستجد كنزك)) ، أنها فاطمة التي يلتقي بها هناك فتكون هي حبَّه الكبير؛ فيعتمل في داخله صراعٌ بين البقاء إلى جانب حبيبته، ومتابعة الرحلة بحثاً عن الكنز، كيف يترك فاطمة امرأة حياته وحبه الأوحد وفي الوقت نفسه هو مدفوعٌ برغبة في البحث عن الكنز، فيعتمل في داخله صراع بين البقاء مع حبيبته أو الرحيل للبحث عن كنزه ، في اللقاء الثاني بينهما يخبرها بحبه لها ورغبته في الزواج منها، فتذكره بكنزه وتحثه للبحث عن أسطورته وهي تقول : ((إذا كنتُ جزءً من

أسطورتك فسوف تعود ذات يوم هذا ما كُتِبَ لك)) ، لقد كانت نفسه تشعر أنه وجد كنزه في شخص فاطمة فلا حاجة لمتابعة الرحل ، لهذا كان يقول : ((أريد أن أبقى في الواحة، لقد التقيت فاطمة وهي في نظري أثمن من أي كنز)) ، ولكن كان كلمات الكيميائي دورها في ثنيه عن البقاء ((لقد وجدت فاطمة كنزها الذي هو أنت، وهي تنتظر منك الآن أن تجد كنزك، إن الحب لا يمنع رجلاً من متابعة أسطورته، لكن إذا حصل ذلك فلأن هذا الحب ليس بالحب الحقيقي الذي يتكلم لغة العالم (لغة الله))، وهكذا أقنعه الكيمائي أو الخيميائي بأنه سيتحول إلى تاجر في الواحة وسيضيع حلمه أو أسطورته إذا هو بقي إلى جانب فاطمة ، لقد كان الكيميائي عارف الأسرار العظيمة عونا له في المضي نحو كنزه ، إذ راح يحثه على المضي نحو كنزه.الكيميائي الذي وجد الله في بحثه عن حجر الفلاسفة وإكسير ، فكان يقول له :نصت إلى قلبك فهو يعرف كل شيء لأنه يأتي من روح العالم وسوف يعود إليها يوماً ما ، وهنا لا بد لي من التذكير بما كان يؤمن به أصحاب الفلسفة الاشراقية المسلمين كابن العربي وابن سينا وغيرهم من المتصوفة الذين يؤمنون بأن القلب والعاطفة الصادقة هي التي توصل إلى الله أو إلى معرفة الحقيقة المطلقة وليس المعرفة والعلم ، ومن هنا لا بد لي من القول إني أجد كويلو يحاكي ابن عربي في قصته التي بعنوان (في معرفة كيمياء السعادة)حتى في العنوان ، وهي قصة حاكى بها ابن عربي المعراج النبوي ، وفي حال أشبه بالقذف الذي يؤمن به المتصوفة يستدل سانتياغو من الإشارات إلى أن المحاربين سيهاجمون الواحة ، فيذهب إلى زعيم الواحة ويخبره برؤياه، ويتشاور زعماء الواحة طويلا، وأخيرا يتحدث إليه الزعيم قائلا إنهم يصدقونه لأنه قبل ألفي عام جاء إلى مصر فتى مثلك اسمه يوسف استطاع بتفسيره لحلم الملك أن ينقذ مصر من المجاعة، وبالفعل يهاجم خمسمائة محارب الواحة ولكن أهلها الذين كان من بينهم ألفا فارس محارب كانوا مستعدين لهم فأوقعوهم في كمين وقتلوهم جميعا، وكافأ الزعيم سانتياغو بخمسين قطعة ذهبية وبتعيينه مستشارا.

ويعترضهم في الطريق محاربون أشداء ملثمون، ويفتشونهما ويجدان مع سانتياغو كمية من الذهب ومع الكيميائي زجاجة تحتوي على سائل أصفر وقطعة زجاجية كأنها بيضة فيسألون الكيميائي فيجيبهما :هذا السائل هو إكسير الحياة الذي يطيل العمر ويحمي من المرض وهذا حجر الفلاسفة الذي يحول المعادن إلى ذهب، فيضحك الرجال كثيرا ويضحك معهم سانتياغو والكيميائي ثم يخلون سبيلهما، بعدها يعاتب سانتياغو صديقه على إخباره الرجال عن السر الأعظم ، فقال له: لكي أريك قانونا بسيطا من قوانين الكون: عندما نجد أعظم كنوز الدنيا فقد لانتبينها لأننا لا نؤمن بوجودها.

وتعترضهما مجموعة أخرى من المقاتلين وتلاحظ أنهما مرا بمعسكر أعدائهما دون أن يعترضوهما فيقررون أنهما جاسوسان للأعداء، ويقررون قتلهما، ولكن الكيميائي يقنعهم بإطلاق سراحهما مقابل الذهب الذي يحمله سانتياغو وبعد أن يريهما قدرة الفتى الخارقة على التحول إلى رياح عاصفة، ثم يصلان إلى الجيزة وينزلان عند راهب قبطي، وهناك يستريحان ويحول الكيميائي كمية من الرصاص إلى ذهب، وضع الرصاص في قدر وسخنه على النار طويلا ثم مزجه بجزء من حجر الفلاسفة لا يزيد على شعرة وتحول الرصاص إلى ذهب وتركه يبرد ثم قسمه إلى أربعة أجزاء أعطى الأول للراهب والثاني لسانتياغو وأخذ الجزء الثالث وأودع الرابع لدى الراهب ليعطيه إلى سانتياغو إذا احتاج إلي .

ويمضى سانتياغو إلى الأهرام وتبهره بعظمتها وتناسقها، ويتبع الإشارات حتى يهتدي إلى المكان الذي يجب أن يحفر فيه، ويمضى الليل طوله يحفر، وفي الصباح يمر به فرسان ملثمون فيفتشونه ويسألوه ماذا تخبئ ويقتادونه إلى خيمة القائد، ويحدثه بقصته، فيضحك الفارس طويلا، ويقول له هل جئت من إسبانيا وأمضيت سنة تعمل، وسرت في الصحراء من المغرب إلى مصر وتعرضت للسلب مرتين، وكدت تقتل مرات عدة من أجل حلم، لقد حلمت مرتين أن ثمة كنزا في كنيسة مهجورة في قرية إسبانية مدفون تحت شجرة جميز نبتت في أرض الكنيسة يأوي إليها رعاة الغنم لكني لم أتبع حلمي، فلست غبيا إلى هذا الحد لكي أجتاز الصحراء الهائلة لأجل حلم رأيته مرتين، وتركه الفارس وانصرف، وفهم الفتى سانتياغو الإشارة، وعرف أن الملك العجوز والكيميائي والفارس الملثم هم شخص واحد، وأنه ترك له الذهب عند الراهب ليعود إلى إسبانيا، وضحك الراهب عندما رآه يعود من جديد وسأل أما كان يمكنك أن تجنبني ذلك كله، وسمع الريح تجيبه: ولكن لو أخبرتك لما شاهدت الأهرام.

ورجع إلى قريته واستخرج الكنز، كان صندوقا مليئا بقطع ذهبية قديمة وأحجار كريمة وأقنعة ذهبية وتماثيل مرصعة بالماس ومخلفات غزو نسيته البلاد منذ زمن بعيد، لقد وجده في قريته تحت شجرة الجميز كما أخبره الفارس، وهبت ريح شرقية قادمة من أفريقيا لا تحمل رائحة الصحراء ولا التهديد بالغزو، ولكن تحمل أرج عطر يذكره جيدا حين ودع فاطمة في منتصف الليل قبل أن يسافر مغادرا، فابتسم وقال: ها أنذا يا فاطمة، إنني قادم. ، في آخر الرواية يجيب كويلو عن الصراع الأزلي مع الحب في أعماقنا وعن الأسطورة الشخصية التي يجب أن يبحث كل منا عنها في الإشارات الغيبيه التي تمر به و بقلبه الذي يحدثه دوماً بالبحث عن سبل السعادة ، وأخيرا لعل من

الصحيح القول هنا ان هذه النهاية المفتوحة تدل على إمكان أن يلاقي أي شخص آخر الشيء ذاته الذي لاقاه سانتياغو ، ومن ثم تجعل القارئ يضع النهاية التي يريدها هو ان وقع هو في الموقف ذاته .

فكرة الرواية ومقصديتها :

قبل الخوض في تفاصيل ذلك ، لابد لنا من أن نسأل أنفسنا ونقول : هل(الكيميائي) رواية بالمعنى التقني لهذا الجنس الأدبي المتميز والمنتشر في عصرنا، أو هي حكاية أو خرافة فلسفية مليئة بالحكم التي توارثتها وتقاسمتها البشرية منذ غابر الأزمنة؟ سؤال لا اشغل نفسي بالبحث عن إجابته هنا ، لكني أحببت من هذا المدخل أن أشير إلى رمزية هذا النص ، فهو ككل الحكايات التي تتحدث عن القدر تنطوي على مستوى عال من الرمزية ، والكاتب في هذه الرواية، يستعيد موضوع الرحلة من بطون الأدب العالميِ ، كرحلة جلجامش الذي راح يبحث عن سر الخلود ، ورحلة السندباد في ألف ليلة وليلة ، كما علينا أن لا نغفل كوميديا دانتي ورحلة أليس في بلاد العجائب ، وغيرها من الرحلات الخيالية التي فكربها كلُّ الذين فتّشوا عمّا يجعل الحياة أجمل أو الذين حلموا بالخلود والسعادة ؛ حجر الفلاسفة، وإكسير الحياة ، وتفاحة الحياة ، وغيرها ، وهنا من حقنا أن نسأل : هل أن الذهب أو الكنز الذي بحث عنه سانتياغو هنا هو إكسير الحياة وسر الخلود والسعادة ، أو هو الذهب بعينه ؟ ، وهل فعلا على الإنسان أن يبحث عن أسطورته الشخصية كما قال .كويلهو ليسعى إلى تحقيقها وذلك عندما شبه رحلة البطل سانتياغو في الرواية برحلة الإنسان في هذه الحياة ولكنها رحلة مكثفة ومختصرة ، حتى لو كانت مثل أسطورة دون كيشوت الذي راح يصارع طواحين الهواء متخيلا أنها العدو .

أراد كويلو منا أن لا ننكفيء ونتراجع عن الوصول إلى غايتنا علينا أن نتذكر سانتياغو الذي لم تمنعه كل المعرقلات عن المضي في سبيل غايته حتى وان كانت صعبة ، بالتأكيد يحتاج الإنسان في كل مراحل الحياة إلى من يجدد الثقة فيه ليستمر ، ولعل من النافلة أن نذكر هنا أن النبي محمد (ص) ـ كما تذكر المصادر ـ ما كان ليقوم بمعجزة الإسراء والمعراج لولا ما شاهده ولمسه من الكفار من عنت وعدم مبالاة ، بل وإصرار على الكفر ومحاربة الرسالة ، هنا عندما اشتدت المحن على رسول الله (ص) رفعه الله إليه ليريه بأم عينه ما ادخره له الباري من نعيم وما سوف يلاقيه الكفار من عذاب ،إذ أن من الثابت أن مشاهدة الآخرة أساس قوي لإقامة المبادئ الأخلاقية على الكرة الأرضية (٦) ،وذلك حتى تتجدد فيه العزيمة ، ولكي يثبت له أن في الله عوضا له عن كل ما فقد ، وان الملكوت سيحتفي به حفاوة تمسح عنه كل عناء هذه المتاعب والأذى الذي سببه المشركون له ، وستعطيه هذه الرحلة شحنة قوية على العمل الرسالي (٧) .

في الحقيقة لقد أوجد باولو كويلو للعالم حكاية رائعة يستطيع أن يضيفها إلى ما لديه من حكايات رمزية جسّدت في رمزية ساحرة حقيقة تحقق الحلم ما دمنا راغبين في ذلك قدّمها في أجواء تعبق فيها الإشارات الغيبية، الرموز، والتلاحم مع روح العالم، والحكمة.. نلمس في هذه الرواية بساطة الحكاية وسهولتها ، حتى يخيل للقارئ في بعض الأحيان انه أمام نص ساذج لا ينطوي على أي بعد فلسفي ، ويبدو أن المؤلف قد قصد البساطة قصدا وذلك بغية جذبه قطاعا عريضا من القراء ، وبعبارة أخرى انه لم يكتب للخاصة ، بل جعل نصب عينيه الجمهور البسيط من العامة ، ومن جانب آخر استطاع الكاتب توظيف تقنيات فنية استطاع بها شد انتباه القارئ وجذبه إليه كتوظيفه الترقب والحماس اللذين غالبا ما يصاحبان أدب المغامرة والرحلة عادة ، فضلا عن الدهشة والتنوع، ولعلي لا أجانب الصواب عندما أقول إن عظمة كويلو تكمن في انه استطاع عبر البساطة أن يكون عظيما ، فهل نتعلم من الدرس ونكتفي ببساطتنا لنكون عظماء ؟! .

تنطوي الرواية على الرمز الذي يمكن تأويله بالأمل والتفاؤل فتخبرنا أن كل شيء ممكن في الحياة طالما نريده فعلاً فقط علينا أن نملك الشجاعة والإرادة لمتابعته كما فعل سانتياغو ،وإلا نخاف من الفشل ـ كما هو حال بائع البلور العربي الذي عمل لديه سانتياغو في المغرب ، فقد عبر هذا الرجل عن مشاعر الخيبة التي تكتنفه اتجاه تحقيق حلمه أو أسطورته التي تتمثل بحج بيت الله الحرام ، علينا ألا نيأس مما يعترضنا من عقبات وصعوبات في الحياة ، قد تكون قوى سيئة تلك التي تقف في وجوهنا

ولكنها تعلمنا كيف نحقق هذه الأسطورة، ولعل من الصواب الاستشهاد في هذا الخصوص بالقول المأثور الذي يقول جزى الله خيرا أعدائي وحسادي ، فقد علموني كيف أكون ناجحا !! ، ذلك لأن الصعوبات تعلمنا كيف نبني ذواتنا ونغذيها بالإيمان برحمة الخالق وحكمته ـ الذي رمز له في الرواية بروح الكون ـ في تلك الرحلة من الحياة يكون كل شيء واضحاً وممكناً ولا نخاف أن نحلم بكل ما نحب أن نفعله في الحياة، بيد أن قوة غامضة تحاول مع مرور الوقت أن تثبت أن من المستحيل تحقيق أسطورتنا الشخصية، فالحلم يتحقق ما دمنا راغبين في ذلك ، وإذا ما رغب الإنسان في شيء فإن العالم كله يطاوعه لتحقيق حلمه .

دفاعه عن العروبة والإسلام في الرواية :

لا غرو أن لانتشار رواية الكيميائي فضل على العرب والمسلمين في وقت شح فيه النصير والمعين ، فقد طارت هذه الرواية عبر الكرة الأرضية إلى أكثر من مائة وخمسين دولة ، وهي تحمل في داخلها تصويراً رائعاً لدين الإسلام ، في وقت جندت العديد من وسائل الإعلام نفسها للإساءة إليهم وتشويه صورتهم ، كويلو عبر روايته هذه كان يرسم بدأب صوراً مشرقةً للدين الإسلامي ، لا أبالغ إذا ما قلت انه جعلنا نشعر بالامتنان إليه ولصنيعه ومن ثم حملنا دينا في أعناقنا ، اسمعه ماذا يقول عن الإسلام في وقت شح فيه الصديق ، يقول على لسان التاجر للفتى : ((إن الإسلام يأمرنا بإطعام أي جائع)) ص ٦١ ، ثم استشهاده بالآية القرآنية الشريفة : ((قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له)) ص ٩٣ ، كما يظن القارئ أن كويلو يكاد يترجم الآية الكريمة التي تقول :«وننزل من القرآن ما هو شفاء..» حينما يقول على لسان أحد سكان الفيوم «إن الله يشفي جميع الأمراض» ، وكذلك تصويره لتعامل المسلمين مع غيرهم ، وشرحه أركان عبادتهم ، وقداسة فرائضهم ،كفريضة الحج ، ثم حديثه عن شهامة العرب المسلمين وحكمتهم عند حديثه عن الشخصيات العربية والإسلامية في الرواية . بل إن الخيميائي أو الكيميائي نفسه ـ محور الرواية ـ وشخصها المقدس ، ومنبع الحكمة ، ومعلم الفتى ، لم يكن إلا رجلاً عربياً مسلماً ، وفي ص ٤٢ يلتقي البطل سانتياغو بملك «سلام» المخلوع ، وهذه التسمية لاشك أنها تعني «سلام» العربية التي هي من مشتقات مفردة الإسلام الذي يصفه المؤلف بأنه «كان يشبه العرب..» ، ويكتب في مكان آخر : «فكّر «سانتياغو» بأن الخيمة بناها رجلان احدهما يتكلم العربية والآخر يتكلم الاسبانية. ومع ذلك، فقد تفاهما تمام التفاهم..)، ومما لاشك فيه أن هذا القول يرمز إلى استعداد المسلمين لمشاركة جميع البشر في بناء العالم ، وربما فيه إشارة إلى الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، وهناك موقف أورده كويلو يرمز إلى تسامح المسلمين ، واعني به توقف الكيميائي المسلم مع سانتياغو في احد الأديرة في أثناء رحلتهم الأسطورية ويطلبان من رئيس قساوسته مطبخه كي يطبخا أكلهما الذي يتقاسماه مع القس ، وأخيرا لابد لنا من أن نذكر أن باولو كويلهو حينما جعل بطله المسيحي الكاثوليكي (سانتياغو) الذي درس في الكنيسة وكاد أن يصبح قسا، يحب فاطمة بنت الفيوم المسلمة التي هي بدورها بادلته الشعور نفسه ، ولكننا بالمقابل نقرأ قوله على لسان الراعي :((كنا نراهم ـ المسلمين ـ يصلون بطريقة غريبة، عدة مرات في اليوم)) ، ثم يضيف على ذلك قول البطل :((جميع الناس، أي المسلمين، يسجدون ويضربون رؤوسهم على الأرض..)) ص ٨٨ ،وهو قول ربما ينبئ عن استخفاف بعقيدة الصلاة ، الأمر الذي يجعلنا نؤول ما قاله حتى نجد العذر للرجل .

وقبل الانتقال إلى موضوع آخر أود هنا الإشارة إلى أن كايلو لم يكد يخرج في تصوره عن العرب عما ألفناه عند روائيي أمريكا اللاتينية ،فروائيو أمريكا اللاتينية غالبا ما كانوا يظهرون اهتمام العربي بالمال وبعده عن السياسة ، فيصورنه على انه تاجر أو بائع للحلي والقلائد ،وفضلا عن ذلك فهو ضعيف أمام الأشرار واللصوص والقتلة ، إذ يستطيع أي شخص أن يسلبه حقه ،وهو الأمر الذي كرر كايلو في روايته هذه ، وقد علل النقاد هذه النظرة وأرجعوها إلى كون العرب المهاجرين في أمريكا اللاتينية قد تركوا بلادهم بسبب القسوة والاضطهاد ، لذلك نراهم بعيدين عن استعمال القوة والانتقام والثأر (٨) .

ما مدى تأثير ثقافتنا الشعبية والرسمية في رواية الكيميائي ؟ :

نقلت وسائل الإعلام عن الروائي البرازيلي باولو كويلو انه قال خاطب الشباب المصفقين له في أثناء زيارته لمصر عام ١٩٨٧ ، وبالتحديد في ندوة عقدها اتحاد الكتاب المصريين على شرفه : انه استلهم روايته الشهيرة (الكيميائي) من مشاهداته للأهرامات وتأثره بها ، وأضاف كويلو قائلا : انه أتيح له أن ينظر إلى الأهرامات من عدة جهات وخصوصا من جهة الصحراء خلال الليل وهذا ما ألهمه أن يكتب روايته. وطلب كويلو من الجمهور أن يتبادل معه الحديث وان يستمع إلى أسئلته لأنه لم يأت إلى القاهرة محاضرا بل راغباً في الاستماع إلى الناس ـ مشيراً إلى انه لو خيرت بين أن يذهب إلى المتحف أو إلى المقهى خلال وجوده في القاهرة لاختار المقهى من اجل أن احتك بالناس واستمع إليهم ٠(٩) .

ومن جهة أخرى ، في أثناء تصفحي لبعض المواقع الالكترونية العربية وقع نظري على حكايات فيها شبه كبير من رواية الكيميائي ، حتى قلت في نفسي ربما هي من وقع الحافر على الحافر ، أو هي من باب قصص جحا الذي نجد له حضورا في كل آداب العالم ، إذ أن هناك أكثر من حكاية منسوبة للأدب الشعبي الشامي في هذا الخصوص ،وفضلا عن ذلك فقد وجدت أكثر من حكاية شبيهة بهذه الحكاية منسوبة للأدب الشعبي في الجزيرة العربية ،تتحدث إحدى تلك الحكايات عن فتى يعيش في الجزيرة العربية اسمه (ابن مشيقيح) وهو فتى مر بالظروف نفسها التي مر بها سانتياغو ، سوى انه يعيش في إحدى قرى نجد ، يقضي وقته في رعاية بقرة وحيدة تملكها

عائلته الفقيرة ، وهو في كل مساء يحلم بهاتف يقول له : اذهب إلى كنزك المخبأ في بلاد الشام ، ولما كان هذا الفتى معدما مثل سانتياغو يقرر أن يغامر ويطارد هذا الحلم، بحثاً عن هذا الكنز، فيسافر إلى الشام ، ثم انه يعاني مثل الذي عاناه سانتياغو ، حيث الجوع والعطش ، وعند أحد البساتين يسقط من الإعياء تحت ظل شجرة، ثم يصحو على صوت رجل عجوز (هو صاحب البستان) وهو يسأله: من أين أنت، ولماذا أتيت إلى هنا؟ يحكي الفتى حكايته له.. يبتسم العجوز ساخراً منه، ويقول: جئت من نجد مصدقا حلما ، كم أنت غبي أيها الفتى.، لو أن أحلام المنام تصدق لسافرت أنا إلى نجد.. فأنا ومنذ سنوات يأتيني في المنام رجل يقول لي: هناك في إحدى قرى نجد ، وعند منزل فتى يقال له "ابن مشيقح"، وتحت أقدام بقرته المربوطة تحت ظل الشجرة : احفر.. وستجد كنزا ... ، اذهب يا فتى إلى ديارك.. فلا توجد كنوز هنا، وإياك أن تصدق الأحلام ثانية ، فيعود "ابن مشيقح" قافلا إلى دياره، والأمل يحدوه أن يجد ما حلم به الرجل العجوز ، وبالفعل يحفر في المكان الذي أشار إليه الرجل فيجد الذهب(١٠)، ولكن الأهم من كل ذلك هو ما قرأته في جريدة المدينة السعودية ، إذ كتب عمار الطويل تحت عنوان:(رواية الخيميائي مع علامتي الاستفهام والتعجب؟) ما نصه : ((فعندما كنت أقرأ في كتاب باسم (نور وهداية) للشيخ علي الطنطاوي رحمه الله لفت انتباهي قصة مماثلة للرواية المذكورة وكان عنوان مقال الطنطاوي في الكتاب المذكور (الرزق مقسوم ولكن العمل له واجب) والتي نشرت سنة ١٩٨٧. وكان يتحدث الطنطاوي رحمه الله في هذه المقال عن أسباب الرزق وكيفية الحصول عليه وأن الله هو الرزاق الوحيد وضرب أمثلة وذكر قصص ظريفة ومنها القصة القريبة إلى رواية الخيميائي ، وقال بالنص، قرأت فيه: «أن تاجرًا في بغداد ضاقت به الحال وقل في يده المال وسُدت في وجهه أبواب الأعمال، فكان إذا أوى إلى فراشه رأى في منامه كأن هاتفًا يهتف به: «إن رزقك في مدينة القطائع في مصر»... ويُعين له البيت الذي فيه الرزق والحارة التي فيها البيت. وكان ذلك أيام النزاع بين الموفق أخي الخليفة العباسي وأحمد بن طولون الذي استقل بُملك مصر وخرج على الدولة العباسية وبنى مدينة القطائع، وهي بين الفسطاط (مصر القديمة) والقاهرة (التي أنشئت بعدها)، وأقام فيها مسجده الجامع الذي لا يزال باقيًا بمنارته. ومنارتُه صورة معدلة من منارة مسجد (سُر من رأى) الذي تكلمت عنه في ذكرياتي. فلما تكرر هذا الهاتف واستمر يرى هذه الرؤيا جمع من المال ما استطاع جمعه وسافر إلى مصر، وذهب إلى البيت الذي حُدد في المنام فإذا هو دار صاحب الشرطة (مدير الشرطة)، فحسبوه جاسوسًا وأمسكوا به، وقرروه فلم يقر بشيء لأنه لا يُخفي شيئًا، فوضعوا رجليه في الفلق وضربوه ليصلوا إلى إقراره، وهو يقسم لهم أنه لا يعرف شيئًا وإنما هو منام رآه. وقص عليهم ما رأى، فقال له صاحب الشرطة: إنك لأحمق، وأنا أرى من سنين مثل هذا المنام وأسمع قائلًا يقول لي: إن رزقك في بغداد في الدار الفلانية في الطريق الفلاني تحت نخلة فيها، فأعرض عن المنام ولا أهتم به ، وتنبه الرجل إلى أن الدار التي ذكرها صاحب الشرطة هي دارُه، والنخلة التي عينها فيها، فقال لهم: اتركوني فإنني أعود الآن إلى بغداد. وعاد وحفر تحت النخلة واستخرج منها جرة ممتلئة بالدنانير.« قصة الإسباني الباحث عن الكنز مشابهة جدًا لقصة البغدادي الذي كان يبحث عن حلمه وعن الكنز ولكن الإسباني انطلق من إسبانيا والبغدادي العربي من العراق وكلاهما كانت وجهتما إلى مصر، وهذا التشابه في القصص تتبعها علامات تعجب واستفهام، فهل أخذت القصة من تراثنا العربي وقام المؤلف بسردها بطريقته الخاصة أم إنها من التراث الإسباني؟!)) (١١) ،ثم الأهم مما كتبه عمار الطويل هو ما نقله إلينا التنوخي في كتابه (الفرج بعد الشدة) إذ يقول في باب (رأى في المنام أن غناه بمصر) ما نصه : ((حدثني أبو الربيع سليمان بن داوود البغدادي، صاحب كان لأبي، وكان قديماً يخدم القاضيين أبا عمر محمد بن يوسف، وابنه أبا الحسين في دُورهما، وكانت جدته تعرف بسمسمة، قهرمانة كانت في دار القاضي أبي عمر محمد بن يوسف رحمه الله، قال: كان في جوار القاضي قديماً، رجل انتشرت عنه حكاية، وظهر في يده مال جليل، بعد فقر طويل، وكنت أسمع أن أبا عمر القاضي حَمَاه من السلطان، فسألت عن الحكاية، فدافعني طويلاً، ثم حدثني، قال:ورثت عن أبي مالاً جليلاً، فأسرعت فيه، وأتلفته، حتى أفضيت إلى بيع أبواب داري وسقوفها، ولم يبق لي من الدنيا حيلة، وبقيت مدة بلا قوت إلا من غزل أمي، فتمنيت الموت. فرأيت ليلة في النوم، كأن قائلاً يقول لي: غناك بمصر، فاخرج إليها ، فبكرت إلى أبي عمر القاضي، وتوسلت إليه بالجوار، وبخدمةٍ كانت من أبي لأبيه، وسألته أن يزودني كتاباً إلى مصر، لأتصرف بها، ففعل، وخرجت. فلما حصلت بمصر، أوصلتُ الكتاب، وسألت التصرّف، فسد الله علي الوجوه حتى لم أظفر بتصرف، ولا لاح لي شغل. ونفدت نفقتي، فبقيت متحيراً، وفكرت في أن أسأل الناس، وأمد يدي على الطريق، فلم تسمح نفسي، فقلت: أخرج ليلاً، وأسأل. فخرجت بين العشاءين، فمازلت أمشي في الطريق، وتأبى نفسي المسألة، ويحملني الجوع عليها، وأنا ممتنع، إلى أن مضى صدر الليل. فلقيني الطائف (العسس)، فقبض عليّ، ووجدني غريباً، فأنكر حالي، فسألني عن خبري. فقلت: رجل ضعيف. فلم يصدقني، وبطحني، وضربني مقارع.

فصحت: أنا أصْدُقُك.
فقال: هات.
فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخره، وحديث المنام.
فقال لي: أنت رجل ما رأيت أحمق منك، والله لقد رأيت منذ كذا وكذا سنة، في النوم، كأن رجلاً يقول لي: ببغداد في الشارع الفلاني، في المحلة الفلانية، (فذكر شارعي ومحلتي! فسكت وأصغيت إليه)، وأتم الشرطي الحديث فقال: دار يقال لها: دار فلان (فذكر داري واسمي) فيها بستان، وفيه سدرة، (وكان في بستان داري سدرة) وتحت السدرة مدفون ثلاثون ألف دينار، فامض، فخذها، فما فكرت في هذا الحديث، ولا التفت إليه، وأنت يا أحمق، فارقت وطنك، وجئت إلى مصر بسبب منام؟..
قال: فقوي بذلك قلبي، وأطلقني الطائف، فبت في بعض المساجد، وخرجت مع السّحر من مصر ، فقدمت بغداد، فقطعت السدرة، وأثرت تحتها، فوجدت قمقماً فيه ثلاثون ألف دينار، فأخذته، وأمسكت يدي، ودبرت أمري، فأنا أعيش من تلك الدنانير، من فضل ما ابتعت منها من ضيعة وعقار إلى اليوم)) (١٢) .
وبعد ففي ضوء ما اشرنا إليه ، لابد للمنصف من الإشارة إلى مدى التشابه القائم بين النصوص السابقة ورواية الكيميائي لكايلو ،بيد أن الأمر يبقى قاصرا ـ على وفق المنهج الفرنسي في الأدب المقارن ـ ومحتاجا لأدلة تاريخية تؤكد اطلاع كايلو على هذه النماذج ، ولما كنت خالي الوفاض من هذه الأدلة ، لأن كل الذي لدي هو أقوال متفرقة أطلقها الكاتب أمام الصحفيين يؤكد فيها ولعه وحبه للثقافة العربية والإسلامية وتأثره بها ، فهو لم يقل انه اطلع على هذه النصوص ، ومن ثم فان الأمر يبقى في خانة التكهنات ، لذا كان علي اللجوء إلى مدارس أو مناهج أخرى في الأدب المقارن ،كالمدرسة الأمريكية والاشتراكية اللتان لا تشترطان وجود مثل هذه الأدلة ، إنما يكفي ـ حسب هاتين المدرستين ـ وجود الشبه بين النصين ، الذي لابد أن ينطوي على تأثر أو تشابه ـ كما هو رأي الاشتراكيين ـ في البنى التحتية لمجتمعي النصين ، وبعبارة أوضح ، يرى الاشتراكيون في مثل هذه الحالة وجود شبه في الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية في مجتمعي النصين .
وحتى لا تأخذنا تنظيرات مدارس الأدب المقارن المختلفة بعيدا إلى درجة ننسى معها أدبية النصوص وجماليتها ، أود تأجيل الحديث عن هذا الموضوع هنا إلى وقت ومكان آخرين ، وسوف انصرف إلى الحديث عن التأثير الصوفي في كتابات هذا الكاتب ،كأدب ابن عربي ،وذلك في ضوء اعترافات كايلو نفسه (١٣) من انه قد تأثر بالمتصوفة المسلمين وانه مطلع على كتاباتهم .

<u>معراج ابن عربي :</u>

يؤمن أصحاب الفلسفة الإشراقية بتقديم العاطفة على العقل ، بل هم يعدون العاطفة هي المصدر الأول للوصول إلى الحقيقة المطلقة ، وهذه النظرة يكاد يجمع عليها معظم المتصوفة كابن عربي (٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ)صاحب مذهب وحدة الوجود ،ويبدو أن هذا هو السبب الذي من اجله جعل النقاد يشبهون المتصوفة بالجنون في الحب العذري ، كحالة مجنون ليلى (١٤) ، وابن عربي في كل مؤلفاته التي تربو على(٢٥١) مؤلفا يؤكد حقيقة تقديم العاطفة على العقل واكبر تلك المؤلفات هو كتابه الشهير(الفتوحات المكية)، الذي هو كتاب كبير في مجلدات يحتوي على ستين وخمسمائة بابا في مختلف العلوم والمعارف ، كالفلسفة الإسلامية والأسرار الإلهية وبعض التصورات الصوفية وتفسير القرآن الكريم والسلوك الإسلامي وبعض الأحكام الفقهية ، وقد أكمل ابن عربي كتابته ـ كما يشير هو في المقدمة ـ في حوالي (٣٨) سنة ، الذي يهمنا هنا من هذا الكتاب هو الباب السابع والستون والمائة الذي هو بعنوان (في معرفة كيمياء السعادة) الذي ينطوي على قصة صوفية على غرار المعراج النبوي الشريف ، ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن معظم المتصوفة لهم تجاربهم الخاصة في هذا المجال ، حتى أن احد الباحثين استطاع أن يجمع تلك النصوص في بحث أكاديمي نال بموجبه الدكتوراه من إحدى الجامعات الغربية (١٥) ، وعلى سبيل المثال هناك قصص معراجية لكل من ابن يزيد البسطامي بعنوان منطق الطير ، ولإبن سينا والغزالي رسالتان في هذا المضمون بعنوان رسالتا الطير ، وهناك منظومة شعرية بعنوان سير العباد إلى المعاد للسنائي الغرنوي ، وهناك معراجا لأبي الحسن الخرقاني ، ونصا بعنوان اللمعات لفخر الدين العراقي بهذا المضمون ، كما أن هناك مؤلفات لإبن عربي بالمضمون ذاته غير في معرفة كيمياء السعادة ، مثل منظومة الإسراء إلى المقام الأسمى ، وغيرها الكثير ، وعلى أية حال فان المتصوفة في مؤلفاتهم المعراجية هذه استطاعوا أن ينقلوا لنا تصوراتهم وفلسفتهم عبر أسلوب سردي ممتع بعيدا عن جمود الفلسفة وعلم الكلام ، ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن هذا الأسلوب ، واعني به أسلوب صياغة الفلسفة وعلم الكلام الجامدين سردا أو أدبا لتسهيلها على العامة ،هو أسلوب عني به ابن طفيل أفضل العناية ، بل يعد الرجل رائدا في هذا المجال ولاسيما في قصته الشهيرة (حي ابن يقظان)التي تحكي قصة طفل استطاع التوصل إلى معرفة الله وهو في جزيرة خالية من البشر ومن دون تعليم من احد ، وذلك باعتماده على قلبه

وعاطفته ، وحقيقة الأمر ـ كما هو معلوم ـ إن ابن طفيل أراد أن يقول لنا أن العاطفة الصادقة كفيلة بهداية الإنسان إلى طريق الصواب إذا اتبعها، وهو الأمر الذي يؤمن به أصحاب الفلسفة الاشراقية (١٦) .

وهو الأمر ذاته الذي عناه المتصوفة كابن عربي في هذا النص ـ في معرفة كيمياء السعادة ـ فهم يؤمنون جميعا بالفلسفة الاشراقية ، إذ يعتقدون بان الله يقذف في نفس الإنسان المتسلح بعاطفة صادقة وقوية العلوم والمعارف ، فضلا عن المعرفة المطلقة ، ومن ثم فهو ليس بحاجة إلى تعلم العلوم والمعارف ،فلو قرأنا هذا النص بإمعان لوجدنا انه يحكي قصة شخصين احدهما يقدس العقل ويقدمه على كل شيء ، وآخر يقدم العاطفة ويمشي بهداها ، يقرر هؤلاء العروج إلى السماء أسوة برسول الله (ص) وغايتهما الوصول إلى السعادة المطلقة إن تمكنا من الوقوف في الحضرة الإلهية ، ولعل من النافلة أن نذكر إن قصص المعراج الصوفية غالبا ما ترمز بأبطالها إلى رموز محددة ، فعلى سبيل المثال في معراج السنائي الغرنوي (سير العباد إلى المعاد) نجده يعرج بشخصين ـ شيخ وشاب ـ وهما رمزان إلى العقل والشباب والفتوة أو قوة الجسم ، أما هنا عند ابن عربي فان الأمر يتعلق بحيثيات الفلسفة الاشراقية التي تؤمن بتقديم العاطفة على العقل ، وبعد أن تمكن هذان الشخصان من الوصول إلى الأفلاك العلوية ، وذلك بعد أن استطاعا كبح شهواتهما وعواطفهما حتى وصلا إلى درجة الكمال الروحي ، وهي درجة يقول عنها ابن عربي يستطيع الإنسان معها أن يبلغ ما بلغه الأنبياء والصديقون ،ومن المعروف أن المتصوفة يعتقدون أن الفرد يستطيع الوصول إلى مرحلة من السمو والتوحد الروحي مع الباري عز وجل ومن ثم يستطيع عمل المعجزات ومنها(الطرح) الذي يعني بمفهومهم السير في الهواء أو الطيران من غير واسطة ،وهناك أكثر من دليل نقلي يستدلون به على هذه المسألة منها الحديث القدسي الذي يقول:((عبدي كن مثلي تقل للشيء كن فيكون))(١٧)،ومحمد إقبال في(جاويد نامه) التي هي الأخرى قصة معراجية يشرح على لسان جلال الدين الرومي معنى السلطان في قوله عز وجل في سورة الرحمن / آية ٣٣ : ((يا معشر الجن والأنس أن استطعتم إن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان)) ، فيقول :إن الإنسان يستطيع التحرر من أسر الزمان والمكان إذا عشق الله وتوحد معه (١٨)، وربما كان لهذه المسألة صدى في المعتقد البوذي الذي يرى أن ممارسة نوع خاص من الرياضيات الذهنية(اليوجا) تمكن الفرد من تحرير نفسه من ظواهر الحس وشهوات الجسد ، ومن ثم تمكنه من الفصل بين العقل والجسد ، وفي مرحلة لاحقة إزالة العوائق المادية أمام وصوله إلى اعلي درجات الخلاص والتنوير في الحياة تجعله يدرك القدرات الخارقة للطبيعة ، وعندها لا يتحد مع (البراهما) بل يصبح هو براهما (١٩)، ويبدو لي أن خاتمة قصة ابن عربي معروفة سلفا ، لأنه بالتأكيد سوف يمكن الشخص الذي يعتمد على العاطفة من الوصول إلى مبتغاه ـ واسمه هنا التابع ـ أما الذي يعتمد العقل والمنطق ـ واسمه هنا صاحب النظر ـ فانه سوف يصاب بالخسران المبين ولا يتمكن من الوصول إلى ما وصل إليه صاحبه.

بعد هذا هل لنا أن نعقد مقارنة بين رحلة سانتياغو ورحلة كلا من (التابع) و (صاحب النظر) ، وربما رحلة جلجامش في بحثه عن سر الخلود ، فضلا عن رحلة السندباد البحري في البحث عن العوالم الخيالية ، لم لا وأدب الرحلة أدب واسع شمل معظم آداب العالم ، وإذا كان جلجامش قد قام بالرحلة بحثا عن أسطورته المتمثلة بسر الخلود ، فان سانتياغو هو الآخر رحل باحثا عن أسطورته المتمثلة بكنز الحياة . أما إشارات كويلو فان لها ما يقابلها في سفر ألف ليلة وليلة ، ولاسيما في رحلات السندباد المختلفة ، وربما أفاد كويلو في هذا الخصوص من مفهوم القذف عند المتصوفة الذين يؤمنون بأن الله يقذف في روع عبده المحب وكأنه النبي المحدث . إشارات كويلو موزعة ومنثورة أمام سانتياغو ما عليه سوى التقاطها إن هو فطن لها ، وهكذا هي إشارات ألف ليلة وليلة ، ومن ثم فهي دعوة إلى التأمل وعدم الاستهانة بصغائر الأمور ، ألم يرد في الأثر أن علينا عدم الاستهانة بصغائر الأعمال ، فربما خبأ الله رحمته في حسنة بسيطة يعملها العبد ، كما يمكن أن يخبئ غضبه في معصية لمم .

بقي علينا الوقوف على معنى مفردة الكيمياء التي عنون بها ابن عربي وكويلو قصتهما، ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن الأدب الصوفي ، ولاسيما أدب ابن عربي يقترب من الرمز والإشارة ويبتعد عن التصريح ،وان اعتماده على ذلك لا يقتصر على الكناية حسب ، بل انه يميل إلى استعمال المعاني الحسية والغزلية والخمرية للدلالة على مفاهيم وجدانية وروحية ، فضلا عن استعماله مصطلحات جديدة على الساحة الأدبية ،هي اقرب إلى المصطلحات العلمية منها إلى الروحية ،حتى استوجب الأمر معها إلى الرجوع إلى المعجمات الخاصة بالمتصوفة ، كالمعجم الذي وضعه ابن عربي واسماه (اصطلاحات الصوفية) ، وفي ضوء ذلك ـ وبعد الرجوع إلى بعض من تلك المعجمات ـ فان كيمياء السعادة في الأدبيات الصوفية ـ سواء عند ابن عربي أو عند غيره كرسالة كيمياء السعادة للإمام الغزالي ـ تعني فيما تعني تهذيب النفس باجتناب الرذائل وتزكيتها عنها ،واكتساب الفضائل وتحليتها بها(٢٠)، في حين يعني مفردة الكيمياء لوحدها التبدل نحو الأحسن وكذا الإكسير ، وعليه تصبح الكيمياء العلم بالإكسير ، أي العلم الذي يعنى بالنشأة وما يتعلق بها ؛ كنشأة الولد والكون والسعادة ، وكان ابن عربي أراد هنا بيان وجهة نظره

بوصفه صوفيا في أسباب السعادة ونشأتها ، ذلك لان السعادة نفسها ـ عنده ـ هي ثمرة التجلي الإلهي أو معرفة الله حق معرفته (٢١) ، وها هو يعرف الكيمياء في مفتتح الباب السابع والستين والمائة فيقول : ((الكيمياء عبارة عن العلم الذي يختص بالمقادير والأوزان في كل ما يدخله المقدار والوزن من الأجسام والمعاني محسوسا ومعقولا ، وسلطانها في الاستحالات ، أعني تغير الأحوال على العين الواحدة ، فهو علم طبيعي وروحاني الهي ... ، وهو العلم بالإكسير، وهو قسمين ؛ أعني فعله أما إنشاء ذات ابتداء كالذهب المعدني ، وأما إزالة علة ومرض كالذهب الصناعي الملحق بالذهب المعدني ، كنشأة الآخرة والدنيا))(٢٢) .

أما كويلو فان عنوانه الكيميائي أو الخيميائي كما يحلو لبعض النقاد ترجمته قد استمده من اسم إحدى شخصياته الروائية ،وهو بهذا جعل من تلك الشخصية عنصرا سرديا مركزيا كقطب الرحى ، تدور حوله الأحداث وهو ثابت في مكانه ، ومن ثم فان اسم روايته (الكيميائي)هو اسم شخصية ، هي شخصية الكيميائي العربي المقيم في واحة الفيوم ،عارف الأسرار العظيمة ، كمعرفة حجر الفلاسفة ، ذلك الحجر الذي يحول المعادن ذهبا ، فضلا عن معرفته تحضير إكسير الحياة أو مخلد الأعمار ، هي شخصية ـ على المستوى السردي ـ ثابتة غير نامية ، بينما عنوان ابن عربي مستمد من الفكرة أو الفلسفة التي انطلق منها الرجل ،ومن ثم فان عنوانه هو عنوان الفكرة ، لكن ذلك لا يعني البتة ـ كما أظن ـ أن كويلو لم يلامس تلك الدلالة الفلسفية في روايته، فكلاهما ربطا أسباب السعادة الأبدية بالعاطفة ، وبعبارة أوضح أنهما يؤمنان بأن العاطفة الصادقة هي المنقذ الوحيد للإنسان من الأوهام ، وهي المرشدة إلى تلك السعادة ، فإذا اتبعت عاطفتك ، فانك سوف تستطيع ملاحظة الإشارات المهدية إلى مبتغاك أو أسطورتك أو كنزك . أما إتباعك المنطق والعقل فانه سوف يفضي بك إلى أن (١ +١ =٢) ، ومن ثم فانك لم ولن تستطع أن تنفذ من أقطار السماوات والأرض ، لأنك ببساطة لا تتوافر على الوسائل اللازمة لذلك ، وبمنطق ابن عربي لن تستطيع أن تبلغ ما بلغه (التابع) حينما وصل إلى الحضرة الإلهية بسبب توافره على عاطفة قوية صادقة ، وهو السبب ذاته الذي استطاع بسببه سانتياغو الوصول إلى أسطورته المتمثلة بالكنز ، ولغرض توضيح ذلك أكثر نستعين بقول كويلو عن العلامات والإشارات إذ يعرفها فيقول : ((العلامات أو الإشارات هي اللغة الخاصة بك التي بواسطتها يتكلّم الله معك. فعلاماتي ليست علاماتك. إنها على هذه الدرجة من الغرابة، لكنها لغة فردية جدا ترشدك إلى قدرك الخاص بك. إنها ليست منطقية. إنها تتكلّم إلى قلبك مباشرة .الطريقة الوحيدة التي تستطيع من خلالها أن تتعلّم أية لغة هي من خلال ارتكابك الأخطاء. لقد ارتكبت أخطائي، لكني عندها فقط بدأت أتواصل مع العلامات والإشارات التي توجهّني وترشدني. أومن بأنّ هذه العلامات هي صوت الله الصامت الذي يقودني إلى الأماكن والمطارح التي ينبغي لي أن أكون فيها)) (٢٣).
وأخيرا ، ما مدى تشابه كويلو وابن طفيل وابن عربي الذين جميعا حاولوا نقل الفلسفة الجامدة إلى مادة طيعة سردية حتى يسهل على العامة تقبلها ؟، ربما من الأجدر بنا ألا نغالي ونقول إن كويلو فيلسوف أديب حاول أن ينقل لنا فلسفته بصورة ميسرة مبسطة ، ذلك لأن حكما بهذه الدرجة من الدقة سيفتح علينا أبوابا لا نستطيع غلقها ، وربما يغضب علينا ابن طفيل وابن عربي وربما دانيال ديفو صاحب رواية (روبنسن كروزو)، فان يكون الإنسان فيلسوفا أمر ،وان يبدي الإنسان وجهة نظر بمسألة ما أمر آخر ، ومن ثم فليس ابن طفيل ولا ابن عربي مثل كويلو ، لكننا على نحو عام يحق لنا القول أن هؤلاء جميعا استطاعوا أن ينفذوا إلى أعماقنا على الرغم من وعورة ما يقولون .

الهوامش

١ ـ للاستزادة عن هذا الموضوع ينظر : اعترافات الحاج باولو كويلو ، خوان ارياس ، ترجمة خضير ميري ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، ٢٠٠٩ ، وينظر كذلك المواقع الكترونية الخاصة بالكاتب (وهي بلغات عدة) :http://paulocoelhoblog.com / و http://www.paulocoelho.com/index.html .

٢ ـ ينظر : مقال للكاتب نزار آغري بعنوان (باولو كويليو من متسكع إلى مليونير) نشر في جريدة الحياة اللندنية في ٢٠٠٣/١٠/١٥ .
٣ ـ ص : ٤ من رواية الكيميائي لباولو كويلو ، ترجمة جواد صيداوي وروحي طعمة طبعة شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت .
٤ ـ ينظر : حوار أجرته نجوى بركات مع باولو كويلو نشر في جريدة الحياة اللندنية في ٢٠١٠/٥/١٣ .
٥ ـ ينظر : صحيفة الدستور المصرية في ٢٠١١/٢/٤ .
٦ ـ القول لفولتير ، ينظر : أصول الدين الإسلامي ، د . رشيد عليان وقحطان عبد الرحمن الدوري ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ط١ ، ١٩٧٧ : ص ٣٤٢ .
٧ ـ ينظر : الإسراء والمعراج لمحمد متولي شعراوي ،مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٤ ، ص : ٣٧ .
٨ ـ ينظر : الشخصية العربية في روايات أمريكا اللاتينية ، د . داود سلوم ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥ : ص ١٣٢ .
٩ ـ ينظر: الأهرامات ألهمت باولو كويلو روايته الخيميائي ، مقال في جريدة الرياض السعودية في ٢٠٠٥/٥/٢٥ .
١٠ ـ ينظر على سبيل المثال هذا الموقع الالكتروني :
http://www.arabworldbooks.com/ArabicLiterature/cuelho_alchemist.htm
١١ ـ رواية الخيميائي مع علامتي الاستفهام والتعجب؟ مقال لعمار الطويل ، جريدة المدينة السعودية في ٢٠١٠/١٢/١ .
١٢ ـ الفرج بعد الشدة ، تأليف: القاضي أبي علي المحسّن بن علي التنوخي، المتوفى سنة٣٨٤ هـ ، تحقيق: عبود الشالجي ، نشر دار صادر، بيروت ، ١٩٧٨ .
١٣ ـ ينظر : اثر الفكر الديني في روايات باولو كويلو ، بكادي محمد ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ط١ ، بيروت ، ٢٠١٠ : ص ٣٠ وما بعدها .
١٤ ـ ينظر : ليلى والمجنون في الادبين العربي والفارسي ، د.محمد غنيمي هلال ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٠ : ص ٨ وما بعدها .
١٥ ـ ينظر : مسألة العروج في الكتابات الصوفية ، د . قاسم السامرائي ، نشر شركة الطبع والنشر الأهلية ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٦ ، (الكتاب باللغة الانجليزية) .
١٦ ـ ينظر :حي بن يقظان لابن طفيل ، فاروق سعد ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٠ : ص ٥٧ .
١٧ ـ ينظر : الروحية عند محيي الدين بن عربي ، د . علي عبد الجليل راضي ، مكتبة النهضة ، القاهرة : ص ٢٩٩ .
١٨ ـ ينظر : جاويد نامه أو رسالة الخلود للشاعر والمفكر الإسلامي الكبير محمد إقبال ، ترجمة : د . محمد السعيد جمال الدين ، مطابع سجل العرب، القاهرة ، ١٩٧٤ : ص ١٦ و ٣١ و ٥٩ .
١٩ ـ ينظر : فلسفة إقبال الشاعر والفيلسوف الباكستاني محمد إقبال ، د . علي حسون ، ، دار السؤال للطباعة والنشر ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٨٦ : ص ٢٣ .
٢٠ ـ ينظر : التعريفات للجرجاني ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد : ص ١٠٦ .
٢١ ـ ينظر : مدخل الى التصوف الإسلامي ، د .أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ، دار الثقافة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٩:ص ١٨١ ، وينظر كذلك ك المعجم الصوفي ، د . سعاد الحكيم ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨١ : ص ٧٤ .
٢٢ ـ الفتوحات المكية لابن عربي ، دار صادر ، بيروت : ج ٢ / ص ٢٧٠ .
٢٣ ـ حوار أجراه الكاتب رياض بيدس ونشرته مواقع الكترونية عدة منها : http://www.aljsad.net/showthread.php?t=93783 و http://ushaaqallah.com/category.php?Id=12545&sid=c78a98512a3b5e91650ea67da64eef0b

المصادر :

١ ـ الإسراء والمعراج لمحمد متولي شعراوي ،مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٤.
٢ ـ اثر الفكر الديني في روايات باولو كويلو ، بكادي محمد ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ط١ ، بيروت ، ٢٠١٠.
٣ ـ أصول الدين الإسلامي ، د . رشيد عليان وقحطان عبد الرحمن الدوري ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ط١ ، ١٩٧٧.
٤ ـ اعترافات الحاج باولو كويلو ، خوان اریاس ، ترجمة : خضير اللامي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، ٢٠٠٩ .
٥ ـ التعريفات للجرجاني ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد .
٦ ـ جاويد نامه أو رسالة الخلود للشاعر والمفكر الإسلامي الكبير محمد إقبال ، ترجمة : د . محمد السعيد جمال الدين ، مطابع سجل العرب، القاهرة ، ١٩٧٤ .
٧ ـ حي بن يقظان لابن طفيل ، فاروق سعد ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٠.
٨ ـ الروحية عند محيي الدين بن عربي ، د . علي عبد الجليل راضي ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، د.ت .
٩ ـ الشخصية العربية في روايات أمريكا اللاتينية ، د . داود سلوم ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥ : ص ١٣٢ .
١٠ ـ الفتوحات المكية لابن عربي ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .
١١ ـ الفرج بعد الشدة ، تأليف: القاضي أبي علي المحسّن بن علي التنوخي، المتوفى سنة٣٨٤ هـ ، تحقيق: عبود الشالجي ، نشر دار صادر، بيروت ، ١٩٧٨ .
١٢ ـ فلسفة إقبال الشاعر والفيلسوف الباكستاني محمد إقبال ، د . علي حسون ، ، دار السؤال للطباعة والنشر ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٨٦ .
١٣ ـ الكيميائي رواية لباولو كويلو ، ترجمة جواد صيداوي وروحي طعمة طبعة شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت .
١٤ـ ليلى والمجنون في الأدبين العربي والفارسي ، د.محمد غنيمي هلال ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٠.
١٥ ـ مدخل إلى التصوف الإسلامي ، د .أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ، دار الثقافة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٩.
١٦ ـ مسألة العروج في الكتابات الصوفية ، د . قاسم السامرائي ، نشر شركة الطبع والنشر الأهلية ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٦ ، (الكتاب باللغة الانجليزية) .
١٧ ـ المعجم الصوفي ، د . سعاد الحكيم ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨١.

الصحف :

صحيفة الحياة اللندنية في ٢٠٠٣/١٠/١٥ .
صحيفة الدستور اللندنية في ٢٠١٠/٥/١٣ .
صحيفة الدستور المصرية في ٢٠١١/٢/٤ .
صحيفة الرياض السعودية في ٢٠٠٥/٥/٢٥ .
صحيفة المدينة السعودية في ٢٠١٠/١٢/١ .

المواقع الكترونية الآتية :

http://www.aljsad.net/showthread.php?t=93783

http://ushaaqallah.com/category.php?Id=12545&sid=c78a98512a3b5e91650ea67da64eef0b

http://www.arabworldbooks.com/ArabicLiterature/cuelho_alchemist.htm

/http://paulocoelhoblog.com

. http://www.paulocoelho.com/index.html